ذكريات الحرب الكبرى الأولى

كانت الحرب الكبرى فى ١٩١٤ متوقعة ، وكان أساسها المباراة العظيمة بين الانجليز والألمان . فانهما كانا على تقدم صناعى عظيم يحتاج إلى المستعمرات والمواد الخامة والأسواق . وكان الانجليز حاصلين على كل هذا ، ولم يكن الألمان حاصلين على شئ يؤبه به . فكانت الصناعات الانجليزية تمتاز بالمواد الخامة الرخيصة التى تحصل عليها من الهند وجاوة ومصر وغيرها ، فتستطيع بيع مصنوعاتها بأثمان منخفضة . ثم فى الوقت نفسه كانت تجد التفضيل فى الأسواق فى هذه الأقطار وغيرها ، وإذا لم يكن هذا التفضيل بالامتياز الجمركى الصريح ، الذى يجعل مصنوعاتها تدخل هذه الأقطار بسهولة ، فانه يكون بألاعيب أخرى تؤدى إلى التفضيل ، ويقوم بها موظفو المستعمرات لخدمة طبقة الصناعيين والتجاريين فى بريطانيا .

ولم يطق الألمان هذه الحال ، أى أن يثرى الانجليز بأوضاع اقتصادية عالمية غير عادلة ، ويبقوا هم فى تخلف اقتصادى . وشئ من هذه الحال كان أيضاً بارزاً فى مقدمات الحرب الكبرى الثانية التى دعت اليابان فيها إلى « الرخاء المشترك » .

وكانت الشرارة الأولى للحرب قتل أحد الأمراء من أسرة الامبراطور فرانز جوزيف ، وكان إمبراطوراً هرماً على إمبراطورية هرمة ضعيفة . ولم تمض إلا أيام حتى كان العالم كله مشتعلا ، وأخذ الجمهور فى مصر على دهشة .

وكنت أصدر مجلة المستقبل فى القاهرة . فدعيت إلى تعطيلها فى إدارة المطبوعات . ثم شرع الانجليز فى اعتقال من يتوجسون فى اتجاهاته . ولبثت بعض الشهور وأنا أعمل مع مى فى جريدتها ، أى جريدة والدها ، المحروسة . ولكنى سئمت الرقابة التى لم تكن تسمح بنشر خبر صحيح إلا بعد أن تزيفه حتى تخرج الهزيمة التى كانت تقع بالحلفاء كأنها انتصار رائع لهم .

ورحلت إلى الريف ، ورأيت كيف كان يسلط الإنجليز علينا الموظفين المصريين من مأمورين ومديرين وحكمدارين وشرطة لخطف محصولاتنا . وكانت الجمال

والحمير بل الرجال يخطفون أيضاً كما لو كانوا فى قرية زنجية على خط الاستواء قد كبسها النخاسون لخطف سكانها وبيعهم فى سوق الرقيق . وكان المنظر يهين النفس كما يفتت القلب . فكان الرجل يربط بالحبل الغليظ من وسطه ، وخلفه أمثاله ، ويسيرون على هذه الحال صفًّا إلى أن يبلغوا « المركز » فيحبسون فى غرفة المتهمين ثم يرحّلون إلى فلسطين . وكنت أنجح أحياناً بالرشوة فى استخلاص بعض هؤلاء المساكين . وذات مرة سمعت صراخاً ودخلت علىّ نسوة فى فزع ونحيب . وعرفت أن ثلاثة ممن يزرعون أرضنا ألقى القبض عليهم وهم يحرثون فى الحقل . فخرجت ووجدتهم مربوطين بالحبال بحراسة أحد الشرطة . أما سائر الشرطة فقد تركوهم كى يغزوا قرية أخرى . واستطعت بمساومات مع الشرطة أن أحصل على الافراج عنهم . ولكنى لم أكن أنجح كل مرة ؛ ففى ذات يوم قصدت إلى المأمور فى الزقازيق أطلب منه إطلاق اثنين من الفلاحين . فتأملنى ثم قال : أنا عايز أرحّلك أنت لفلسطين . فتركته إذ لم تكن الظروف وقتئذ تأذن بالتحدى .

وفى تلك السنوات السود أثرى كثير من العمد ثراء فاحشاً ؛ فقد فرضوا ضرائب على جميع الشباب من سن العشرين إلى الخمسين كل على مقدار ما يملك . فهذا يؤدى خمسة جنيهات ، وذاك عشرة جنيهات ، حتى يعفيهم من الاعتقال وبعثهم إلى فلسطين . وعرفت عمدة كان يملك ستة أفدنة فقط جمع نحو خمسة آلاف جنيه بهذه الطرق . وكان الفلاحون يجوعون كى يجمعوا هذه الغرامة ويؤدوها .

وقد استمتعت بعد ذلك بالشماتة عندما رأيت هذا الشقى وقد قبض عليه الانجليز بعيداً عن قريته وأجبروه على النزول فى ترعة يبحث عن أحد قضبان الخط الحديدى لشركة الدلتا . فقد فوجئ وهو على حمار قاصداً إلى الزقازيق فأنزلوه وضربوه وأجبروه على العمل فى ترميم الخط الحديدى الذى كان الفلاحون قد نزعوه فى ١٩١٩ وعرفت بعد ذلك أنه تورط فى معاكسات ومشاجرات بينه وبين الأهلين فضاع كل ما جمعه ؛ فقد تعقبوه بالشكايات جملة سنوات وتمسكوا عليه بمخالفات خطيرة جعلته ينفق فى الرشوة وأجور المحامين كل ما جمعه من هؤلاء الفلاحين المساكين .

وكان معظم النقل فى الحرب الكبرى الأولى على الخيول الاسترالية ، وكانت ضخمة يعلف الحصان منها بضعف ما يعلف به حصان من خيولنا . ولذلك كان التبن والشعير يخطفان من الريف . وقد قام عمالنا المصريون ، وهم من الفلاحين ،

بخدمة الحملة الانجليزية فى فلسطين . وكانوا يعدون بعشرات الألوف مات أكثرهم وعمى بعضهم . ومع ذلك عندما انتهت الحرب واشتعلت الثورة فى مصر فى سنة ١٩١٩ وقف السفير البريطانى فى واشنطون ينتقص من قيمة خدمتنا فى الحرب كى يحول دون العطف الأمريكى على قضية استقلالنا ، فقال إن جميع من قتلوا فى الحرب من المصريين لا يزيدون على ثلاثة أشخاص .

وكثير من الفلاحين يتركون الأرض إلى المدن لما يلاقون من قسوة المالكين الذين يعصرونهم بالايجارات والمحاسبات . ولكن الريف لا يزال معموراً بل مزدحماً بالفلاحين على الرغم من جميع ما يلقى هؤلاء فيه من مصاعب . وظنى أن بعض السبب لذلك أن فى الأرض فتنة تسحر الفلاح وتربطه بها مهما قل كسبه منها . فانه يستيقظ قبل الشروق ، ويخرج إلى حقله ترافقه بقرته وحماره وعنزته أو نعجته . وهو يحس برفقة هذه الحيوانات ويجد فى هذه الرفقة لذة تسمو على الاعتبارات المالية . وهو يتشمم الأرض عقب حرثها حين تنفح التربة الهواء بروائحها التى توحى الرخاء والبركة . بل هو يبكر أحياناً كى يتحقق من النمو الجديد فى الذرة أو القمح . وفى الشتاء حين يكسو الندى البرسيم تبدو الدنيا فى بهاء لا يعدل الانسان به أى جمال آخر .

وقد وجدت هذه الفتنة فى السنوات التى قضيتها فى الريف مدة الحرب . وكنت كثيراً ما أتأمل الفلاحين وهم يكدّون من الفجر إلى الغروب ، ثم يعودون مرحين يتغنون بالمواويل خلف البهائم إلى بيوتهم . وهذا الحب للأرض وللنبات وللحيوان يلصق الفلاح بالريف ويجعله يرضى بالمعيشة الضنينة من حيث الطعام واللباس والمسكن ، بل يرضى بقسوة الايجارات والمحاسبات ، بل إن الفلاحة أيضاً تجد من الاهتمامات بتربية الدجاج والبط والحمام ما يجعلها مفتونة بهذه الطيور فتعنى بها كما لو كانت تؤدى هواية لذيذة . وكثيراً ما رأيت إحدى الفلاحات تخاطب البقرة التى عزفت لسبب ما عن الطعام بقولها : يا حبيبتى ، يا أختى ، ثم تمسحها بيديها كما لو كانت طفلا تدلله .

ثم يجب ألا ننسى القمر فى الريف ؛ فانه يسكب سحره على كل شئ ، وأبناء المدن الذين يرون القمر من خلال المبانى لا يعرفون فتنة هذا الكوكب فى الريف .

وغيرى يعدّ الريف منفى ، ولكنى أعتقد أن أحسن سنى حياتى هى تلك التى

قضيتها فى الريف . فقد أتاح لى الدراسة الجدية كما أتاح لى الاستمتاع بالطبيعة . ولم يكن يمر على يوم دون أن أستيقظ فى الساعة الرابعة أو الخامسة من الصباح وأسير فى الحقول وهى مبللة بالندى فى هدوء الطبيعة الرخيم أنتظر بزوغ الشمس فأحييها وأتأملها كأنى فى صلاة . وهناك آلاف من الناس لم يعرفوا قط هذه الصلاة ولم يحسوا هذا الاحساس الدينى فى الاتصال بالطبيعة فى خلوة الحقول التى تنمو كل نهار بحياة جديدة . والسائر فى الحقول فى هذه الساعات الأولى من النهار تغمره نشوة حقيقية حتى ليجد خفة فى نفسه لا تختلف عن تلك التى يحدثها الكئول ، ولكن دون تخدير للوجدان .

والريف يوهم التجزؤ والانفصال . هذا نبات ، وهذا حيوان ، وهذا مسكن ، وهذا حقل ، بل هذا إنسان وهذا بهيم . ولكن المتأمل يجد الترابط والتكافل ، كأن كل هؤلاء وحدة حية .

وقد كان داروين يقول على سبيل الفكاهة إنه يستطيع أن يقدر عدد العوانس فى قرية (فى انجلترا) بملاحظة حقول البرسيم المحيطة . فاذا كان البرسيم مزدهراً ناجحاً فانه يدل على أن العوانس كثيرات فى القرية . ذلك لأنهن يربين القطط . والقطط تأكل الفئران . والفئران تأكل النحل . والنحل هو الذى ينقل إلى البرسيم لقاحه من زهرة إلى زهرة . . . فاذا قلت العوانس قلت القطط وزادت الفئران ، وقل النحل ثم قل ازدهار البرسيم .

ونحن نرى هنا بالطبع فكاهة . ولكن لها مغزاها ، وهو أن النبات والحيوان يعيشان فى تضامن سمبيوزى أى إن كلا منهما يخدم الآخر ؛ فحياة هذا تتوقف على حياة ذاك . وقد كنت أبتهج بالتأمل فى الريف لهذه الروابط بين النبات والحيوان . وكثيراً ما كنت آسف وأنصح بشأن البومة ؛ فان الفلاحين قد ورثوا عقائد غيبية عنها إذ يقتلونها لأنهم يتشاءمون منها ، مع أنها تأكل الفئران التى تقتات بذراهم وخبزهم . ثم إن تكاثر الفئران يؤدى إلى تكاثر الثعابين التى تقتات بها . بل إن للذئاب والثعالب فى ريفنا قيمتها السمبيوزية أيضاً لأنها تنظف القنوات من الرمم .

وقد كنت ، وما زلت إلى الآن ، أجد لذة واهتماماً فى أن أتابع فراشة بل أجرى وراءها كالصبى حتى أمسكها وأتأملها وأبحث عن أعضائها ، ثم أطلقها . وسلوكى هذا كثيراً ما كان يبعث الابتسامات بين الفلاحين الذين يعتقدون

أن مثل هذا العبث لا يتفق والوقار . وما زلت أحلم بأن أقضى السنة الأخيرة من عمرى فى الريف .

وريفنا الذى صنعته الطبيعة ، ريف الحقول والزهر والشجر والطير والفراش، هذا الريف يتلألأ بالجمال ويبعث الحياة تنبض فى عروقنا حين نشرب من هوائه ونشم منه خضرة البرسيم أو الذرة التى تغمر نفوسنا . ولكن الريف الذى صنعه المجتمع المصرى ، ريف المساكن الكالحة المبنية من الطين المجفف ، ريف الايجارات والمحاسبات والحرمان للفلاحين ، هذا الريف لا يوحى إلينا الصلاة بل يوحى الغضب واللعنة وكراهة الحياة فى مصر . فان المالك يعامل أحياناً الفلاحين بروح تجارى لا يبالى هل هو يجوع أو يمرض بسبب الايجارات العالية التى يفرضها عليه .

وأذكر أن أحد الفلاحين فى عزبة غير بعيدة قدم إلىّ ذات صباح فى ١٩١٥ وعرض علىّ أن ينتقل إلى عزبتنا ، فقبلت . وقبيل الغروب حضر هو وزوجته التى كانت تحمل ابنتها على صدرها ، وكان هو يحمل جرة بها « مخلل » . وكانت هذه الجرة كل ما يملك من متاع فى الدنيا . فقد حاسبه صاحب الأرض وأخرجه خالصاً لا عليه ولا له . وفاحت رائحة كريهة من الجرة . فكشف عنها أحد الحاضرين وصب منها على الأرض ، وما زال يصب حتى فرغت . وكان هذا « المخلل » الذى ذكره هذا المسكين لا يتجاوز هذا السائل الكريه يبلل به هو وزوجته خبز الذرة ثم يبلعانه . وكان الهزال واضحاً فى الثلاثة . وكان أوضح فى الطفلة التى كانت تتعلق بصدر أمها كأنها خرقة بالية معلقة . وقد ماتت هذه الطفلة بعد نحو أسبوعين .

وقص علىّ على ، وهذا اسمه ، مأساته . فقد دخل تلك العزبة قبل ست سنوات ومعه بقرة وحمار ، وكان لزوجته صندوق ولحاف وحصير ومخدة . ولكن المالك كان « يحاسبه » كل عام ، فيخرج مديناً . وباع بقرته وحماره فى تسديد الدين . ثم باعت زوجته كل أمتعة البيت كى تشترى الذرة .

وذات مساء أقبلت على العزبة فوجدت علياً مبطوحاً على بطنه وهو يصرخ صرخات عالية . وفزعت عندما رأيته على هذه الحال ، وظننت أنه قد تسمم أو أن وباء الكوليرا قد نقل إلى مصر مع بعض الجنود الهنود . ولكن المسكين سكت خجلا عندما رآنى . وذهبت به فى اليوم التالى إلى الزقازيق لأحد الأطباء

فقال إنه مريض بالبلاجرا ، وهو مرض ينشأ من النقص الغذائى ، فذكرت الجرة التى جاء بها وصببنا منها المخلل على الأرض . . .

وتفاقمت حاله ، وظهرت عليه أمارات البلاهة . وتركته زوجته وتزوجت غيره . ثم حدث حريق فى بهنباى بعد ذلك بسنين ، وكان هو فى أحد أزقتها . فخانه ذكاؤه الذى تقهقر من البلاجرا فعجز عن التخلص من النار ومات بالحريق .

وفى الريف المصرى الجميل ، آلاف من هذه المآسى التى تعود إلى الروح التجارى فى محاسبة الفلاحين وزيادة الايجارات حتى يموتوا فى بطء لقلة الطعام . وأغلب المسئولين عن هذه القسوة هم من المالكين الذين يعيشون فى المدن ويستغلون غيابيا أرضهم ، فلا يستطيع وكلاؤهم التسامح ، ولا نقول الرحمة ، مع المأزوسين والفقراء ، بل أحياناً يبرهن هؤلاء الوكلاء على إخلاصهم واجتهادهم للمالكين بزيادة الايجارات على هؤلاء المساكين .

وكنا نقرأ الأخبار كما يحب الانجليز أن نفهمها . ولذلك كانت الرقابة صارمة شاملة . فقد اشتركت فى بعض المجلات الأمريكية كى أصل عن طريقها إلى الأخبار الصحيحة . فكانت إما تمنع من الوصول إلىّ وإما تقص أوراقها التى تحمل أخباراً غير ملائمة للانجليز . ولكن حتى بين المحررين المصريين من كان يستطيع أن يروى الخبر بحيث يجوز ظاهره على الرقيب ويدرك قارئه ما بين سطوره ، مثل :

« جاء فى التلغرافات أن هزيمة الألمان عند فردناش كانت فادحة ، إذ تقدموا بعد جهد كبير عشرة كيلومترات . ولكن ارتد عليهم الجنود الانجليز والفرنسيون فانتزعوا منهم طاحوناً . وقد أحدث هذا المنظر فرحاً عاما فى قيادة الحلفاء . »

وكان الرقيب ينخدع بهذه اللهجة وينسى المعانى الواضحة .

وكان إعجاب الجمهور بألمانيا يفوق الوصف . وبعض هذا كان يعود بالطبع إلى الشماتة بالانجليز المحتلين لوطننا . وكنا نهجس أحياناً بأمل الاستقلال إذا انهزمت بريطانيا أو على الأقل لم تنتصر . وكان هذا الأمل قوياً فى بداية الحرب وبقى إلى أن دخلت أمريكا فى صف الحلفاء . ولم تكن الطائرات عنصراً خطيراً فى الحرب الكبرى الأولى . ولم تزرنا فيها غير طائرتين : الأولى ألقت قنبلة بالقرب

من البنك الأهلى . والثانية ألقت قنبلة فى حى الفجالة ، وكان التلف صغيراً . وأيضاً أرسلت ألمانيا بلوناً عبر جوّنا ، ذهاباً وإياباً ، من أوربا إلى المستعمرة الألمانية فى أفريقيا الشرقية . ولم يلق أية معارضة من الانجليز . وكان على ارتفاع بعيد حتى لم يسمع أحد بأزيز موطراته .

وقد كانت براعة الألمان فى القتال عظيمة ، ولكن إخفاقهم فى السياسة كان عظيما أيضاً ، إذ لم يستطيعوا أن يتوقوا انضمام الأمريكيين إلى أعدائهم . ولذلك صحت كلمة لويد جورج رئيس الوزارة الانجليزية عندما قال : « الألمان يكسبون المعارك الآن . ولكنا نحن سنكسب الحرب » .

وكان تشرشل بطل الحرب الكبرى الثانية بطلا أيضاً فى الحرب الكبرى الأولى . فقد كان يتهم الألمان بأنهم يصنعون الصابون من جثث القتلى أى يستخرجون الشحم من هذه الجثث ويصنعون منه الصابون . وقال أيضاً إن الألمان يبعثون جنودهم إلى المدن لتلقيح النسوة بلا زواج . . . وكانت هذه التهم بالطبع غير صحيحة . ومما قام به تشرشل فى تلك الحرب أنه زيف ملايين النقود الورقية وبعث بها عن طريق سويسرا إلى ألمانيا حيث أفسد قيمة النقد الألمانى . وتشرشل أيضاً هو المسئول عن الحصار الذى ضربه الانجليز على ألمانيا أحد عشر شهراً بعد إعلان الهدنة . فلم يكن يدخل ألمانيا شئ من الأغذية التى يحتاج إليها السكان ، وكانوا قد بلغوا حالا بشعة من القحط . وقد عم الكساح أطفالهم لهذا الحصار .

وارتفعت الأسعار والأثمان إلى أربعة أضعاف بل خمسة أضعاف ما كانت عليه قبل الحرب . ولكن الرخاء كان عاما ، لأن الانجليز بعد أن كانوا قد حددوا أثمان القطن فى السنتين الأوليين من الحرب تركوها حتى وصلت إلى ٤٠ و٤٥ جنيهاً للقنطار . وكان أردب القمح يصل إلى ٧ أو ٨ جنيهات . وبقيت إيطاليا مدة طويلة وهى محايدة ، فكانت تموننا بكثير من المصنوعات . ولذلك لم يزد قط ثمن البذلة على ٨ أو ٩ جنيهات . وأحدثت أثمان القطن المرتفعة هوساً عاما فى الريف حتى بلغ ثمن الفدان خمسمائة جنيه وإيجاره ٤٠ أو ٥٠ جنيهاً . وبدهى أنه فى مثل بلادنا حيث منع الانجليز تأسيس المصانع يجب أن ترتفع أثمان الأرض كلما زاد النقد المتداول ؛ إذ ليس هناك شئ آخر لاستغلال النقد الفائض . وأعرف اثنين شقيقين فى الريف كانا يتجران بالقطن فى ١٩١٩ . وقد عمهما الهوس بشأن

الزيادة المستمرة فى أثمانه ، فصارا يجمعان منه ويكتزان حتى أصبحت ثروتهما كلها قطناً لا يملكان شيئاً غيره . وكان يعرض عليهما الثمن العالى فيرفضان انتظاراً لارتفاع الثمن إلى خمسين أو مائة جنيه . وهما فى هذه الآمال والأحلام و إذا بالثمن يهوى إلى أقل من أربعة جنيهات . فجن أحدهما ومات الآخر . وكثر الانتحار بين المضاربين على أثمان القطن فى بورصة الاسكندرية . وفى أثناء هذه الحمى كانت الثروات الضخمة تتكون فى أيام أو أسابيع ؛ فقد كان هناك تجار يشترون البيض أو الزبد أو يتجرون فى البهائم ، فلما رأوا أن القطن يصعد إلى السماء أقبلوا عليه . فلم يكن يدور العام على أحدهم ، فيما بين ١٩١٨ و ١٩١٩ ، حتى كان يملك عشرين أو ثلاثين ألف جنيه مع أن كل ما كان يملك فى بداية تجارته لم يكن يزيد على مئتى جنيه . وكان بعض هؤلاء يتناسى قديمه و يزعم أنه أصيل عريق فى الثراء . وبعض آخر كان يتبجح بعصاميته وأنه جمع ثروته بذكائه ، أو كما كان يقول بذراعه . وكلاهما كان كاذباً ؛ لأن كل ما فى الأمر أن الحظ رفعهم كما خفض غيرهم .

وكانت الحرب تسير فى سلحفة بطيئة خالية من الاقتحامات ، حتى كاد الناس يعدونها شيئاً مألوفاً ليس هناك ما يدعو إلى أن يتغير . فقد حفرت الخنادق ، من الجانبين ، فى الاقليم الشمالى من فرنسا وجهزت بالأثاث والمصابيح الكهربائية ، ونظمت بينها المواصلات وحصنت بالأسمنت . وعم الجبهة الغربية ركود حتى صارت عبارة « كل شئ هادئ فى الميدان الغربى » من العبارات الرمزية نقولها عندما لا نجد خبراً جديداً . وهنا الاختلاف بين الحرب الأولى والحرب الثانية فى ١٩٣٩ . فان الغارات الجوية التى وصلت إلى مدننا جعلت هذه الثانية متحركة نشيطة بالمقارنة إلى سكون الأولى فى الخنادق . وحاول الألمان أن يحركوا الجبهة الغربية بالهجوم الكبير على فردان . ولكنهم لم ينجحوا إلا فى قتل عشرات الألوف من شباب الألمان والفرنسيين . والواقع أنه لم يكن فى أخبار الحرب الأولى ، بعد الهجوم البرقى الألمانى الأول ، مما بقى أثره سوى ثلاثة أشياء هى دخول أمريكا فى الحرب ، ثم انفصال روسيا بنظامها الجديد . وأخيراً شروط ولسن التى أحسسنا بها كأننا نفتتح عصراً جديداً للسلام والعدل . وكان أهم مافى هذه الشروط حق تقرير المصير للشعوب التى يستعبدها الاستعمار . وكانت « عصبة الأمم » إحدى ثمرات جهاد ولسن للسلام العام .

وقد ظهر ولسن بمذهبه الجديد كما لو كان نبيا . فان العالم الذى كان يئن من الامبراطورية البريطانية استروح نسيما منعشاً من هذه المبادئ الجديدة التى تقول بالمساواة والحرية وتقرير المصير . وعلقت هذه المبادئ بأذهاننا ، وصرنا نلهج بها ونفكر فيما نستطيع أن نتتفع به منها . وكان الساسة الانجليز يتململون من هذه المبادئ ولكنهم لم يستطيعوا منعها وإنكارها . وقد عادوا إلى مثل هذه الحال فى الحرب الكبرى الثانية عندما دعا الرئيس روزفلت إلى ميثاق الأطلنطى والحريات الأربع . فقد قبلوا مبادئ ولسن ثم مبادئ روزفلت بالقول مع نية نقضها بالفعل .

وكان ولسن يسير فى أوربا ويتنقل من عاصمة إلى أخرى والجماهير تحتشد له وتتلقاه فى خشوع دينى ، حتى كان بعضهم يجثو على الركب على أرصفة المحطات . وكان الكاتب الفرنسى رومان رولان فى فرنسا التى غادرها احتجاجاً على الحرب . وقد كتب له خطاباً مفتوحاً قال فيه :

« أنت وحدك ، أيها الرئيس ، بين جميع أولئك الذين يحملون الواجب الرهيب لقيادة الأمم ، أنت وحدك تستمتع بسلطة روحية عالية . فانك توحى الثقة العامة .

« أجب نداء هذه الآمال الحارة . وتناول هذه الأيدى التى بسطت إليك فاجعلها تصافح بعضها بعضاً . . . لأن الأمم إذا وجدت أنها خذلت فى هذه الوساطة فانها ستتفرق وتهيم فى فوضى ثم لا بد أن تتحطم فى الشطط . وعندئذ تنغمس الشعوب فى الدماء وتنكفئ الأحزاب القديمة إلى رجعية دموية . . . أيها الوارث لجورج واشنطون وإبراهام لنكولن هلم إلى الراية وهى ليست راية حزب أو راية أمة وإنما هى راية العالم كله . وادع نواب الشعوب إلى برلمان البشرية . وارأس أنت هذا البرلمان بالسلطة الكاملة التى هى حقك لمالك من وجدان روحى سام ، ولما لأمريكا من مستقبل عظيم . تكلم . تكلم إلى الجميع . لأن العالم متعطش إلى صوت يعلو ويغمر تخوم الأمم وطبقاتها . كن الحكم للأمم الحرة ، حتى يعرفك المستقبل بأنك كنت المصالح . . . »

وليس شك فى أن مبادئ ولسون الأربعة عشر كانت من أكبر العوامل لثورتنا فى ١٩١٩ . وكان ولسون يحاول تغيير العالم ، وكان يؤمن برسالته فى جد وشرف . ولكن الرجل فى شرفه وسذاجته لم يقدر عتوّ اللؤم والخسة

فى الامبراطوريين : كليمنصو رئيس وزارة فرنسا ، ولويدجورج رئيس وزارة بريطانيا . فقد سايره هذان الاثنان وأوهماه بالموافقة التامة على مبادئه كى يلقى بكل القوة الأمريكية فى كفة الحلفاء ضد ألمانيا . حتى إذا تم الانتصار بفضل هذه القوة للانجليز والفرنسيين تنكر هذان الاثنان له . وكان من الفكاهات التى يتنادر بها الفرنسيون فى حمق ورعونة قول كليمنصو وقت المفاوضات : إننى فى مأزق ، فعن يمينى نابليون وعن يسارى المسيح . وهو يعنى بنابليون لويد جورج فى زعمه أنه بطل ، وبالمسيح ولسون فى زعمه أنه مصلح للعالم . ونحن الآن فى ١٩٤٧ عندما نذكر هذه المفاوضات فى ١٩١٩ ندرك أن ولسون لم يكن فقط الرجل البار بالبشر بل كان أيضاً الرجل البصير . أما هذان الاثنان فكانا أحمقين ، طربا للانتصار ورضيا بالنظر القصير . ولو أن مبادئ ولسون عمت العالم لما وقعت الحرب الكبرى الثانية .

وعلى كل حال ربح العالم من ولسون « عصبة الأمم » . وصحيح أن الامبراطوريين من الانجليز والفرنسيين أفسدوها وأحالوها إلى هيئة ميتة عندما أيقنوا أنها تعارض المذهب الامبراطورى . ولكن هذه العصبة نبهت الأذهان ، وبقيت ماثلة أمام العالم نحو عشرين سنة وهى تشهد ، حتى بضعفها وفشلها ، على ضرورة إقامة منظمة عالمية تشرف على مصالح البشر . وقد كانت هى الباعث بعد ذلك لايجاد « منظمة الأمم المتحدة » و « مجلس الأمن » .

والحق أن هاتين الحربين قد أنجبتا بطلين عالميين فقط ، كلاهما أمريكى هما ولسون وروزفلت . وكلاهما دعا دعوة عالمية فعبر عن أسمى الأمانى وأنضر الآمال فى السلام والعدل والشرف بين البشر . وفى العالم الآن ثقافة عالمية بشرية جديدة تختمر . وعن قريب ستتبلور . ثم سوف تتجوهر مبادئ عامة نؤمن بها جميعاً ونقول بها إن هذا الكوكب هو وطننا ، هو قريتنا التى يجب أن نجوب شوارعها ونعرف أزقتها ، فى القطب الشمالى أو جبال هملايا فى الصيف ، وفى صحارى أفريقيا أو آسيا فى الشتاء . وطن عالمى جديد كبير يلغى هذا العالم المجزأ أو هذه الأوطان القديمة .

وكثير من الفضل فى هذا الاتجاه يعزى إلى ولسون وروزفلت .

سلامه موسى